٥ ـ الجوع لا يلبس الحرير

الفتى الصغير الذي مدّ يده إلى صاحب العينيْن الواسعتيْن حَصَلَ على رداءٍ ملوّن من الحرير.

وفي لحظةِ طيشٍ رمى الفتى ثوبَه المهترئَ قرب النهر، وارتدى الثوب الجميل، وراح يسير كملك.

العصفور الصغير قال لصاحبه: أُنظرْ إلى الشحّاذ، لقد أصبح مهرّجاً!

رمق الفتى العصفورَ بغضب، ورماه بحجر صغير.

الريح اقتربتْ من الفتى، وراحت تتحسّس ثوبه بإعجاب، ثم اصطدمتْ بجلده الخشن، فصاحت: «ما هذا الجلد الخشن يا صغير»؟!.

صاح الفتى بنزق: «لستِ مضطرّةً للمسي». همستِ الريحُ بلا اكتراث: «كنتُ ألمس ثوب الحرير»!. عاود الفتى السير ببطء وهو يَضْرب الحصى بقدميه. وقبل أن يصل إلى بيته بخطوات قليلة، أدار ظهره، وركض نحو النهر. شَعَرَ بسعادةٍ عارمة وهو يرى ثوبه القديم ما يزال على الأرض. وبحركة بطولية خلع ثوبه، وارتدى الثوبَ القديم.

اللاذقية

التمثيليّة

سعيد سالم

كانت تلك هي المرّة الأولى التي أكتبُ فيها عملاً درامياً للإذاعة وباللغة العاميّة. سبق أن أصدرتُ العديد من الروايات والقصص القصيرة خلال ربع قرن، فلم يصل صوتي إلى الناس، ولو في همسٍ خافت. لاشك أنه أمر يستحق دراسة مستفيضة، ولكنْ ليس هذا هو موضوعنا الآن، بل وإلى أجل غير مسمى.

كُتِبَ النصُّ على الآلة الكاتبة وتم تصويرُه نسخاً عديدة بحيث يتسلّم كلُّ ممثلٍ ورقه كاملاً. جلستُ خلف المُخْرج في الاستوديو. لاحظتُ على الفور أنّه الملك المتوج للمكان بغير جدال؛ فالكل طائع لأمره بغير مناقشة، والكلُّ ملتزم بتقديم فروض الولاء وإظهار مشاعر الود والامتنان له حتى لو كان الباطنُ غير ذلك.

حين سمعتُ اسمي يتردد بين جنبات الاستوديو بصوت عظيم مجسّم، تملّكني زهوٌ جميل: فلولاي لما جلس المخرج على مقعده هذا، ولما وجد هؤلاء الممثلون عملاً يُظهرون من خلاله مواهبهم الفذة ويتقاضون عنه أجورهم العالية التي تفوق أجري كمبتدئ بالإذاعة.

أذهلني أنّ المخرج يقبّل الممثلات بلا حرج كما لو كان يمارس حقاً من حقوقه المشروعة، وأنهنّ يبادلْنه القبلات من نفاقٍ ربما يستر النفورَ أو الكراهيةَ عند البعض أو التسليمَ للأمر الواقع خضوعاً للقمة العيش عند البعض الآخر.

لم أنبهر بكثرة إطراء الممثلين والممثلات على عملي الدراميّ لأنّني أدركتُ منذ البداية أنّ المسألة كلها تمثيلٌ في تمثيل. وكيف لا يكون الأمر كذلك والحقيقة تقول إنّ الجميع هنا مشتركون في تقديم تمثيليّة؟!... قالوا لي:

ـ منذ عشرين سنة لم أمثّل دوراً بهذه العظمة يا أستاذ.

ـ يا أستاذ. حوارك ناطق حيّ يكاد يستغني عمّنْ يقوم بتمثيله.. إنّه نفسه يمثّل!

ـ بلا مجاملة يا أستاذ، رغم حداثة عهدك بالكتابة الإذاعيّة فإنّك تفوقتَ بجدارة على كتّاب الإذاعة المحترفين.

وببساطة شديدة قالت لي إحداهنّ بعد أن جلستْ ملاصقةً لي على مقعد من مقاعد الاستراحة:

ـ تعال جانبي يا عسل. كلامك حلو. تستاهل عليه بوسه!

ذهلتُ لرفعها الكلفةَ بيننا دون تمهيدٍ مسبَّق، فأنا لا أعرف حتى اسمها الحقيقيّ، وإنَّما أعرف أنها سلوى في تمثيليتي والسلام، مثلما أعرفُ أسماء الممثلين الآخرين بأسماء الشخصيات التي يؤدونها فحسب، ذلك أنَّه لم يكن لديَّ مبرِّرٌ كي أزحم ذاكرتي باسميْن لكل شخصيّة.

بدون مناسبة همس المخرجُ في أذني قائلاً بحنكة:

ـ لا تصدِّق الممثلين، فهم يقولون الكلام نفسه لكل مؤلف.

لكنّ ملاحظته لم تهزّ ثقتي فيما أكتب واعتزازي به مثقالَ ذرَّة.

لفتتْ نظري سيدةٌ عجوز تجلس بجوار فتاة صغيرة في ركنٍ بعيدٍ من أركان الاستراحة. كان عليها أن تنتظر عدة ساعات حتى يجيء دورُها في تسجيل الحلقات. ظننتُ أنها اصطحبتْ ابنتها أو حفيدتها معها لمجرد المؤانسة. نسيتُ أن هناك دوراً لطفلة، وأنَّني مؤلِّف هذا الدور وحكايته.

يتجمع الممثِّلون الذين لا دور لهم في إحدى الحلقات في قاعة الاستراحة. يتحدثون عن خزانة الإذاعة الخاوية، وعن اضطرارهم إلى الحضور عدة مرّات لاستلام أجورهم والعودة بخفَّيْ حُنَيْن. يَلْعنون ظاهرة المركزية القاهرية في كل شيء. يتبادلون النكات السياسيّة والجنسيّة الفاضحة بغير خجل من وجود سيدة أو فتاة. معظمهم يدخن بشراهة غير عادية، ويلقون بأعقاب السجائر على الأرض في لامبالاة.

انتابني حزنٌ شديد حين لاحظتُ أنّ الممثلين يُلْقون بأوراقي على أرض الاستوديو بمجرد الانتهاء من تمثيلها، فيكنسها الساعي بمقشته مع أعقاب السجائر والأتربة وسائر النفايات. كل شيء يحدث هنا ببساطة وتلقائية: النص الأصليّ يُرسل إلى إدارة العقود حتى يمكن اعتماد الأجر بناءً على عدد الساعات المذاعة، ليتحول في النهاية إلى مستندٍ رسميّ بإدارة الميزانيّة أياً كان الفكرُ الذي يحويه هذا النصّ. النص المصوّر لا يعني الممثل في شيء بعد أدائه، فلماذا يحتفظ به وهو يستعدّ لأداء دورٍ آخر في نصٍ آخر في اليوم التالي أو ربما في اليوم نفسه؟!.. الإذاعة تبثّ النص في الهواء للمستمعين فيستمعون إليه ثم ينسونه بعد قليل. حتى إذا أراد أحدهم أن يعود بذاكرته إلى مسمع معين لم يستطع ما لم يكن قد سجّل النصّ بمعرفته. قال لي المخرج:

ـ إذاعة النص عندنا تعادل نشر الكتاب عندك، فلا تيأسْ!

ـ إذن فهو نشرٌ في الهواء.

ـ كل شيء في هذه الدنيا في الهواء.

لم يكن يقصد أن يكون حكيماً حين قال عبارته الأخيرة، ولكني تعمدتُ أن أجد فيها حكمةً فوجدتُ. خطابات معدودة وصلتني من قرّاء متباعدين حول كتبي، ولكنّ مكالماتٍ تليفونيّة لا حصر لها انهالتْ عليّ بعد بدء إذاعة تمثيليتي المسلسلة. الناس تسمع، إذن، وتهتمّ وتناقش أكثر مما تقرأ وتتأمل وتفكّر. لا مفر من التسليم بالأمر الواقع هذا. ثم إنّ العائد الماديّ من الكتب بسيطٌ للغاية، ولا يتكافأ أبداً مع الجهد المبذول في كتابتها، ولا مع المراجع التي لا بدّ من الاطلاع عليها قبل الكتابة، ولا مع السجائر والدخان وانحناءِ الظهر وآلامِ الرقبة والتهابِ أعصاب الأصابع والإرهاق الذهنيّ والتوتر العصبيّ والتذبذب الوجدانيّ وتقلُّبِ المزاج مائة مرةٍ خلال فترة إنجاز روايةٍ واحدةٍ قد تدوم عاميْن أو ثلاثة أعوام.

ما زالت التمثيليَّة مستمرّة. النصّ وأنا والمخرج والممثلون مشتركون في التمثيليَّة، ومعنا مؤثِّراتٌ موسيقيَّةٌ وصوتيَّةٌ متنوِّعة. وتقترب مني السيدة العجوز على استحياء:

ـ يا أستاذ. منذ ساعات ثلاث أنتظر مع ابنتي.

- معذرة، ماذا أستطيع أن أقدّمه لك من عون؟
- دوري ينحصر في حلقتيْن، ودور ابنتي في حلقة واحدة.
- وما يعني هذا؟
- يعني أن أجرنا سوف يكون هزيلاً.
- وكيف تُحلّ هذه المشكلة؟
- تطيل من دوري ودورها، أكرمك الله!
- ...
- إنني في احتياجٍ شديد، لا أراك الله كرباً!
- حاضر.

لم أدر كيف وافقتُها بسرعة على مطلبها، ولا كيف سأتصرف مع النصّ أو المخرج وفاءً لوعدي لها. انتحيتُ بالمخرج جانباً، وقررتُ إتقان تمثيليّةٍ أخرى أؤديها أمامه لأقنعه بما نويتُ عليه من تغييرات في بعض الحلقات بالحذف والإضافة. ولم أدرِ أيضاً: هل أتقن المخرجُ التمثيلَ حين وافقني، أم أنَّه صدّقني بالفعل معتقداً أنّ ما قلته حقيقةٌ لا تمثيليّة؟

الاسكندرية

إغمـــاض العين

السـيـد زرد

لم يكن ممكناً أن تكون النهاية إلاّ على النحو الذي حدث. ما كان لشيء أن يغيِّر من مسار الأحداث وتداعيها، ويُوصِل إلى غير النهاية التي وقعتْ. لا أسعى - من وراء قولي هذا - إلى نفي مسؤوليتي عمّا وقع، بيد أنّها الحقيقة التي يجب الإقرارُ بها.

يمكن البدءُ في استعادة ما جرى من أيّ نقطة، والانطلاق في أيّ اتجاه، لأنه سيتم الوصولُ - حتماً - إلى النهاية نفسها.. تماماً، مثل وضْعِ الإصبعِ على أيّ موضعٍ من الكرة، إذ يمكن الوثوقُ بأننا في منتصف الكرة تماماً.

لا أريد أن أناقش المسألة على صعيد الجبر والاختيار؛ فذلك مستوى آخر للتناول، أرى أنه يزيد الأمر تعقيداً، ولا يفيد على الإطلاق في حالتنا.

فلنبدأ من أيّ نقطة...

ها هي تتقافز إلى ذاكرتي تلك اللحظةُ التي امتدّتْ فيها يدي لتحوي لأول مرةٍ يدَها، فأُدرك - على نحوٍ ساطع - أنّ هذه المرأة أنثاي، وأنّها لي حتى النهاية.

لم يكن قد انقضى على عودتي من الغربة سوى أشهر معدودة. عدتُ بعد سنواتٍ ممتلئاً بالمال والخواء. رحتُ أفتِّش عن بدايات جديدة للحياة: عن عملٍ بديلاً عن الوظيفة التي تركتُها، وعن زوجةٍ عوضاً عن الحبيبة التي نسيتُ ملامحها، وعن أصدقاء خلافاً للصحاب القدامى. بعد أشهر من العودة، لم أعثر إلاّ على مسكن جديد. انتقلتُ إليه، حاملاً وحدتي وبطالتي وجهامةَ وجهي الأربعينيّ الذي لفحتْه شمسُ الصحراء.

فشلتُ في العثور على عملٍ يلائمني. ولم أجد من يَصلُح صديقاً. أما الأقارب فقد سئمتُ شرهَهم وعوزَهم واحتياجاتِهم التي لا تنقضي.. وتبدّتْ فكرةُ الزواج مأساويةً وبائسةً إلى حدٍّ مفجع.

قرّرتُ أن أستغني بنفسي عن العالمين. فأحضرتُ كلَّ صنوف الخمور، واستحضرتُ كلَّ نساء العالمين عبر «الدِشّ»، ورحتُ أصرفُ أيامي مخموراً مستثاراً. وإذ يستفسر الأقاربُ عن حالي، أزعم أني منشغلٌ بدراسة مشروعٍ كبير.